

شبه الجزيرة العربية

عندما شارف القرن ٩ هـ/١٥ م على نهايته كانت هناك ثلاث قوى سياسية رئيسية تتحكم بمصر الشرق الأدنى وتجابه بعضها البعض : الدولة العثمانية التي توسعت خلال القرن ٩ هـ/١٥ م في الأناضول ثم سيطرت على الوطن العربي خلال عصر السلطانين سليم الأول وسليمان القانوني ، والدولة الصفوية في إيران التي كانت تحاول أن تمد نفوذها على الأناضول العثماني وتهدد الوطن العربي بمصر نفسه ، وأخيراً السلطنة المملوكية المتداعية في مصر والشام والحجاز . وإلى جانب هذه القوى قامت ، هنا وهناك ، في الجزيرة العربية وأطرافها إمارات وسلطنات أهمها : إمارة الشرفاء في مكة وسلطنة عُمان والسلطنة الطاهرية والإمامة الزيدية في اليمن .

ومع الاكتشافات الجغرافية ، بطابعها الاستعماري ، ازدادت أهمية شبه الجزيرة العربية الاستراتيجية ، وخصوصاً أطرافها المطلّة على الخليج العربي والبحر الأحمر وبحر العرب ، لإشرافها على طرق المواصلات البحرية ، ولوقوع طرق المواصلات البرية القديمة بين الشرق والغرب فيها . ونتيجة لذلك تعرضت المنطقة منذ بداية القرن ١٠ هـ/١٦ م إلى هجمة استعمارية برتغالية استولت على النقاط الاستراتيجية في ساحل شبه الجزيرة العربية المطل على بحر العرب ، وفي الخليج العربي كسوقطرة وجزيرة مصيرة وقلحات وقريات ومسقط وصحار وخور فكان والمنامة والقطيف . كما فرضت دولة البرتغال هيمنة طويلة على ما احتلته من مناطق ، استمرت حتى النصف الأول من القرن ١١ هـ/١٧ م ، ومنها : مسقط من ٩١٣ هـ/١٥٠٧ إلى ١٠٦١ هـ/١٦٥٠ م ، والبحرين من ٩٢٨ هـ/١٥٢١ إلى ١٠١١ هـ/١٦٠٢ ، وهرمز من ٩١٣ هـ/١٥٠٧ إلى ١٠٣٢ هـ/١٦٢٢ ، وصحار وخور فكان من ٩٢١ هـ/١٥١٦ إلى ١٠٥٣ هـ/١٦٤٣ ، وجزيرة فيلكا من ٩٢٦ هـ/١٥٢٩ إلى ٩٥٧ هـ/١٥٥٠ . كما استولى البرتغاليون على كمران في البصر الأحمر ، وحاولوا فاشلين الاستيلاء على جدة خلال الأعوام ٩١١ هـ/١٥٠٥ م و ٩٢١ هـ/١٥١٥ م و ٩٢٧ هـ/١٥٢٠ م . وفي ساحل شبه الجزيرة العربية المطل على بحر العرب اجبر البرتغاليون عدن في عام ٩٢١ هـ/١٥٢١ م على دفع الجزية ، وعلى الاعتراف بالسيادة البرتغالية في عام ٩٢٧ هـ/١٥٣٠ م .

وعلى الرغم من ضعفها ، تمكنت الدولة المملوكية من التصدي للسفن والأساطيل البرتغالية المتسللة إلى داخل البحر الأحمر ، لكنها عجزت عن مقارعة البرتغاليين في بحر العرب وسواحل الخليج العربي . وما لبث العثمانيون أن ورثوا عن المماليك مسؤولية الدفاع عن سواحل الجزيرة العربية . ومن قاعدتهم البحرية في السويس تمكنوا من احتلال نقاط استراتيجية على سواحل البحر الأحمر الشرقية ، ومنعوا البرتغاليين من تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة برتغالية . كما استولوا على اليمن للعرض نفسه . ومقابل ذلك فشل العثمانيون في دحر البرتغاليين أمام سواحل الهند ، ولم يتمكنوا من زحزحة البرتغاليين عن قواعدهم في الخليج العربي ، لكنهم كانوا يدعمون المقاومة المحلية ضد البرتغاليين ويرسلون سفنهم من حين لآخر لمهاجمة مراكز البرتغاليين .

وبعدما أصبحت البرتغال جزءاً من إسبانيا ، خلال الفترة الممتدة من ٩٨٨ هـ/١٥٨٠ م إلى ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ م ، ضعفت اتصالاتها مع قواعدها في الخليج العربي ، فتمكن الإنكليز والهولنديون من دخول الخليج كمنافسين للبرتغاليين لأجل الفوز بنصيب من التجارة الفارسية وإنهاء احتكار البرتغال لتجارة المحيط الهندي . وخلال الربع الأول للقرن ١١ هـ/١٥٧٠ م عملت كل من هولندا وبريطانيا على إقصاء البرتغال سياسياً وتجارياً عن المنطقة وتحالفت الدولة الثانية مع الإيرانيين لأجل تحقيق ذلك . ثم ما لبث الإنكليز أن اضعفوا النفوذ الهولندي واحبطوا محاولة فرنسا لاختراق المنطقة خلال حرب السنوات السبع (١١٧٠ هـ/١٧٥٦ م - ١١٧٧ هـ/١٧٦٣ م) ، كما احبطوا الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣ هـ/١٧٩٨ م - ١٢١٦ هـ/١٨٠١ م) . وكذلك محاولات كل من روسيا وألمانيا إقامة نفوذ في المنطقة منذ أوائل القرن ١٤ هـ/أواخر القرن ١٩ م .

ومنذ القرن ١٣ هـ/١٩ م أصبح مركز بريطانيا في الخليج لا يضاهاى . ولكن هذا النفوذ سرعان ما جوبه بحركة جهادية بحرية ذات طموح وطني تزعمها القواسم للمحافظة على استقلال المنطقة . وقد نشط القواسم أمام سواحلهم وفي المحيط الهندي وهددوا تجارة الأوروبيين ، مما جعل دول أوروبا الاستعمارية تقرر في مؤتمر فيينا عام ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ محاربة نشاط العرب الجهادي الذي أطلقوا عليه تسمية « القرصنة » . وتحولت منطقة الخليج العربي ما بين ١٢١٥ هـ/١٨٠٠ و ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ إلى منطقة صراع بحري وبري بين الإنجليز والمقاومة العربية ، إلى أن تمكنت بريطانيا من القضاء عليها عام ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ وفرضت على مشيخات ساحل عُمان ، الذي سُمي منذ ذلك الحين بالساحل المتصالح ، معاهدات صلح وصدقة كانت أساس التجزئة السياسية للمنطقة .

واتبعت بريطانيا سياستها هذه بتكثيف هيمنتها على ساحل شبه الجزيرة العربية الشرقي طوال القرن ١٣ هـ/١٩ م وحتى عام ١٢٣٥ م/١٩١٦ . فرضت بريطانيا حمايتها ووصايتها على طول الساحل الممتد من صور جنوباً حتى البصرة شمالاً مروراً بمسقط وساحل عُمان وقطر والبحرين والكويت .

وبعدما كانت بريطانيا قد احتلت عدن في عام ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م أخذت ، منذ أواخر القرن ١٢ هـ / الثمانينات من القرن ١٩ م ، تعمل على تحويل مناطق اليمن الجنوبية إلى محميات تابعة لها . إضافة إلى ذلك قامت بريطانيا بالعمل على تفكيك سلطنة عُمان في عام ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ م ، فانقسمت هذه منذ ذلك التاريخ إلى سلطنتين ، إحداهما في مسقط والأخرى في زنجبار . كما استولت بريطانيا على جزر كوربا موريا في عام ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ ، وعلى جزيرة بريم في عام ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٧ ، وعلى جزر كمران في عام ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٨ م .

وعندما عجزت طرق المواصلات البحرية للقرن ٩ هـ / ١٥ م عن تلبية متطلبات التجارة الدولية ، المارة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي ، من حيث السرعة والكلفة ، تم تطوير طرق المواصلات البحرية في تلك المناطق والمرافئ ، ومُدَّت خطوط البرق البرية والبحرية . وترافق ذلك مع استخدام النقل التجاري وافتتاح قناة السويس .

ولم تكن طرق المواصلات البحرية سبلاً لنقل السلع فحسب ، بل كانت أشكالا للنفوذ والهيمنة الدبلوماسية والتبشيرية والصحية والثقافية للدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية . فاستقرت الرسائل التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية في أكثر من منطقة في الخليج العربي ، كما أقيمت الكنائس والأديرة والمدارس والقلاع والمراكز الصحية والاستشفائية ، تحيط بها الفصليات الأجنبية والمراكز التجارية ومكاتب البريد .

وفرضت الدول الكبرى من خلال نفوذها في المنطقة معاهدات واتفاقيات على أقطار الخليج العربي ، ابتداء من الثمن ١٢ هـ / ١٩ م وحتى الحرب العالمية الأولى . وقد اشترطت هذه المعاهدات والاتفاقيات على أقطار الخليج الامتناع عن « القرصنة » وعن تجارة الرقيق فيما نصت اتفاقيات ومعاهدات أخرى على ضرورة قيام المشيخات بحماية خطوط البرق ومناطق التنقيب عن النفط .

ومن خلال معاهدات الصداقة والتجارة واللاحقة أخذت الدول الكبرى ، وخصوصاً بريطانيا وفيما بعد الولايات المتحدة الأمريكية ، تستغل موقع المنطقة الاستراتيجي والاقتصادي ، لتقيم منذ النصف الأول من القرن ١٤ هـ / ٢٠ م ، المطارات العسكرية والقواعد البحرية في النقاط الاستراتيجية .

ومنذ الربع الأخير من القرن ١٢ هـ ، منتصف القرن ١٨ م ، شرع التكوين السياسي لدول المنطقة الرئيسية في اتخاذ شكله الذي استمر عليه حتى اليوم من خلال الأسر الحاكمة في المنطقة . وقد كان على الأسر الحاكمة والأقطار في شبه الجزيرة العربية أن تناضل لأجل الاستقلال عن بريطانيا . فتحقق لها الاستقلال عام ١٢٨١ هـ / ١٩٦١ م . وتبعته في نيل الاستقلال اليمن الجنوبية في عام ١٢٨٩ هـ / ١٩٦٧ ، وسلطنة عُمان وإمارات الساحل المتصالح قطر والبحرين و(البوطي ، دبي ، الشارقة ، أم القيوين ، الفجيرة ، عجمان ، ورأس الخيمة) التي شكلت مجتمعة دولة الإمارات العربية المتحدة في عام ١٢٩١ هـ / ١٩٧١ م . وفي هذا السياق كانت حالة المملكة العربية السعودية واليمن الشماليين استثنائيين . فكل الدولتين لم تخضع للنفوذ الأجنبي ولم تخض حرباً تحريرية ضد قوى الاستعمار ، وبالتالي فإن إنجاز تكوينها السياسي إنما جاء نتيجة لجهود أسرة آل سعود وبشكل خاص الملك عبدالعزيز والأئمة الزيديين . إضافة إلى السعودية واليمن الشمالية حصل العراق من بريطانيا عام ١٢٥١ هـ / ١٩٣٢ على استقلال صوري .

منذ حصولها على الاستقلال ساهمت دول شبه الجزيرة العربية بفاعلية وعزم في المجالات العربية والدولية فانتمت دولة الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عُمان ودولتا قطر والبحرين في عام ١٢٩١ هـ / ١٩٧١ إلى جامعة الدول العربية وإلى هيئة الأمم المتحدة . وكان دخول الكويت إلى جامعة الدول العربية في عام ١٢٨١ هـ / ١٩٦١ وإلى الأمم المتحدة في عام ١٢٨٢ هـ / ١٩٦٣ . وكان إنتساب اليمن الجنوبية إلى الهيئتين المذكورتين في عام ١٢٨٧ هـ / ١٩٦٧ . أما دول المملكة العربية السعودية والعراق واليمن الشمالية فقد كانت من الأقطار العربية المؤسسة لجامعة الدول العربية في عام ١٢٦٤ هـ / ١٩٤٥ م . أما الانسحاب إلى هيئة الأمم المتحدة فكان في عام ١٢٦٤ هـ / ١٩٤٥ بالنسبة للسعودية والعراق ، و ١٢٦٦ هـ / ١٩٤٧ م بالنسبة لليمن الشمالية .

ولم يقتصر دور دول الخليج العربي على المجالات العربية والدولية فحسب ، بل تعداها إلى المحافل الإسلامية . فمنذ عام ١٢٨٩ هـ / ١٩٦٩ ، تاريخ انتساب دول الخليج إلى المؤتمر الإسلامي ، أخذت هذه الدول تشارك بحيوية في هذا المؤتمر . وكان أثرها بالغا في مجالات دعم الدول الإسلامية والمساعدة على توحيد الصف الإسلامي .

إضافة إلى الاهتمامات العربية والدولية والإسلامية شرعت تلك الدول في الاهتمام بشؤون منطقة الخليج العربي . وفي عام ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م قامت ست دول خليجية ، هي : المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة والكويت والبحرين وقطر وعُمان ، بتأسيس « مجلس التعاون لدول الخليج العربية » بهدف « تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بين الدول الأعضاء في جميع الميادين وصولاً إلى وحدتها » .